# ابن حمديس

## — ٢ —

بقلم : الاستاذ عبد الحميد الرجيلي

### ٤ = اقوال مؤرخي الادب فيه

لقد تتبعت الذاكرين لهذا الشاعر من الادباء القدماء فرأيتهم قليلين جداً ونحن هنا نذكر لك ما عثرنا عليه لتتنور اكثر مما ذكرناه لك آنفاً : قال ابن خلكان ناقلا عن الذخيرة لابن بسام من القسم الذي لا يزال غير مطبوع : هو شاعر ماهر يقرطس اغراض المعاني البديعية ويعبرعنها بالالفاظ النفيسة الرفيعة ويتصرف في التشبيه المصيب ويغوص في بحر الكلام على در المعنى الغريب . . ودخل الاندلس سنة احدى وسبعين واربعمائة ومدح ابن عباد فاحسن اليه واجزل عطاياه . . وله ديوان شعر اكثره جيد . توفي في رمضان سنة ( ٥٢٧ ) ه بجزيرة ميورقة وقيل ببجاية ودفن الى جنب ابن اللبانة الشاعر المشهور ، وكان قد عمى . وابيانه التي في الشيب والعصا تدل على انه بلغ الثمانين .

وقال في نفح الطيب اثناء ذكر شعره . وعلى كل حال فالحسن والاحسان يقادان في ارسان لعبد الجبار بن حمديس ذي المقاصد الحسان وخصوصاً في وصف المباني والبرك فما ابقى في ذلك حسناً ولا ترك .( وبعد ان ذكر له قصيدتين) قال : وهاتان القصيدتان لابن حمديس مع طولهما تدلان على الابداع الذي ابتكره والاختراع الذي ما ولج سمع احد من الفضلاء إلا شكره لما سكره .

واحسن من اوجز القول فيه من المتأخرين الاستاذ الزيات حيث قال عنه :

كان ابن حمديس صحيح العقيدة ؛ وقور النفس ، رقيق الشعور . قوي الملاحظة ظاهر الجد . كثير الانقباض . شديد التشائم. ولكنه كان سمح الاخلاق حلو المعاشرة يحضر مجالس الطرب ويخالط اهل اللهو في عفة نفس وكرم خلق وسلامة عرض : وهذه الصفات انما استنتجناها من شعره ، ولا ندري أهي ناشئة فيه من طبيعة ميلاده ام هي اثر من آثار نكبته في بلاده . آنتهى ما ذكره الاستاذ الزيات واقول انك اذا راجعت المكتبة الصقلية التي جمعها بعض المستعربين من كتب العرب المؤرخين لصقلية ومؤرخيها وادبائها ترى الكثير من هؤلاء قد قد ذكروا ابن حمديس وولده محمداً ؛ ولكنهم اوجزوا في ذلك جداً .

### ٥ = شعر ابن حمديس وانواعه ومميزاته

طرق ابن حمديس اغلب انواع الشعر الوجدانية من مدح ورثاء وفخر وحماسة وغزل ونسيب ووصف ونحوها . وان كان ماجاء في شعره من المدح اكثر من غيره ولكن الذي عرف به ابن حمديس هو الوصف والشكوى والم الفراق وهذان النوعان هما اللذان عرفاه للادباء وجعلا منه شخصية بارزة بل فائقة كثيراً من ادباء المغرب . وقد ترى في ابن حمديس العازب عن الدنيا المتزهد في الحياة السالك طريق ابي العتاهية الثائر على الاستهتار والمجون الملتزم لوم النفس وحثها على فعل الخير وهو في كل مايقول عفيف اللفظ نبيل الفكرة حسن التفكير واضح الاسلوب جيد التركيب غزير المادة واسع الخيال جميل الابداع الشعري محب للجمال وصاف بارع للطبيعة والذائذ الحياة ومجالس الانس يرسم لك كل ذلك بريشة الفنان الذي لا تفوته دقة الملاحظة ووضوح الفكرة وقد قلنا ان ابن حمديس عرف بشيئين وبنوعين من انواع شعره وصفه لالام نفسه التي تمكن في اعماقها من جراء الفراق ووحشة الغربة وكدرة العاطفة وفراق الوطن المحبوب؛ فقد ترك ابن حمديس صقلية وعمره حوالي ثلاث وعشرين سنة. فأثرت تلك الصدمة في نفسه التناقض والاضطراب حتى صار شعره يجمع بين المتنافرات ويضم المتناقضات اذ بينما تراه في سكرة الخيال يذكر اللهو وصفاء النديم وجلاء النفس يفاجئك على غفلة من الوعي ودهشة من السامع الى هذه الشكوى من الحياة وهذه الحيرة؛ وهذه الكراهة للاختلاط . وهذه الرغبة في العزلة عن الناس . واليك صورة من ذلك التناقض المغرب :

| | |
|---|---|
| حبذا فتيان صدق عرسوا | بعذارى من سلافات الخمور |
| عربد الصحو عليهم بالاسى | فاتقاه السكر عنهم بالسرور |
| عمروا ربع الصبا من قبل ان | يتمشى فيه بالشيب دثور |

الى ان يقول :

عد بالاكواب عني ان لي ... في يد الآنس عنهن نفور
عمر الشيب الدجى في لمتي ... بنجوم طلع ليست تغور
لا تثور لشبابي بعدما ... مات من عمري الى يوم النشور
انا من وجدي بايام الصبا ... اذرف الدمع رواحا وبكور
اصف الراح ولا اشربها ... وهي بالشدو على الشرب تدور
انا من كسب ذنوبي وجل ... وان استغفرت فالله غفور

وهذه صورة ثانية من تلك المتنافرات من صوره الشعرية يذكر بها ايام شبابه في صقلية ومجالس لهوه في اول حياته هناك :

وراهبة اغلقت دبرها ... فكنا مع الليل زوارها
هدانا اليها شذى قهوة ... تذيع لانفك اسرارها
طرحت بميزانها درهمي ... فاجرت مع الدن دينارها
تفرس في شمها طيبها ... مجيد الفراسة فاختارها
فتى دارس الخمر حتى درى ... عصير الخمور واعصارها
وعدنا الى هالة اطلعت ... على قضب البان اقمارها
يرى ملك اللهو فيها الهموم ... تثور فيقتل ثوارها
وقد سكنت حركات الاسى ... قيان تحرك اوتارها
فهذي تعانق لي عودها ... وتلك تقبل مزمارها
ورقصة لقطت رجلها ... حساب يد نقرت طارها

الى ان يقول :

ذكرت صقلية والاسى ... يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابي غدت ... وكان بنو الطرف عمارها
فان كنت اخرجت من جنة ... فاني أحدث اخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء ... حسبت دموعي انهارها

ويقول الاستاذ احمد ضيف (.. وقد يكون ابن حمديس من اكثر شعراء العرب وافضلهم لأن لشعره صبغة خاصة ليست معروفة كثيراً في الشعر العربي تلك الصبغة هي محاولته الخروج من الوجدانيات التي هي اكثر مظاهر الشعر العربي الى الكلام عما يجول بالنفوس لا من جهة الخيال وما به من الجمال لا غير بل من جهة التفكير ايضا وما يمر بنفس الانسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة واشكالها ..) والحق ان هذه الكلمة التحليلية لابن حمديس من ابدع ما قيل فيه واليك الشاهد على قول استاذ ضيف من قصيدة طويلة :

أتحسبني انسى ومازلت ذاكراً ... خيانة دهري أو خيانة صاحبي
تغذى باخلاقي صغيراً ولم تكن ... ضرائبه إلا خلاف ضرائبي
ويا رب نبت تمتريه مرارة ... وقد كان يسقى عذب ماء السحائب
علمت بتجربتي اموراً جهلتها ... وقد تجهل الاشياء قبل التجارب
ومن ظن امواه الخضارم عذبة ... قضى بخلاف الظن عند المشارب
ولما رأيت الناس يرهب شرهم ... تجنبتهم واخترت وحدة راهب

وقد يثور ابن حمديس بعواطفه على من صاحبهم في الاندلس وافريقيا فيقول :

وقد بدلت بعد سراة قومي ... ذئابا في الصحابة لاصحابا
والفيت الجليس على خلافي ... فلست مصاحباً إلا كتابا

اما وصفه البديع وما جاء به من صور فائقة الجمال فقد شمل القصور والمباني الفخمة والخيل والسيوف والبرك والانهر والبحر والاسطول والحرب والتماثيل والاسود وما الى ذلك من مجالس الطرب ومعاهد الانس وما يدور فيها من نكت وظرافة ومجانة وشرب وغيرها مما يطول ذكره .

فمن ذلك وصفه للنهر :

ومطرد الاجزاء يصقل متنه ... صبا اعلنت للعين ما في ضميره
جريح باطراف الحصى كلما جرى ... عليها شكى اوجاعه بخريره
كأن جباناً ريع تحت عبابه ... فاقبل يلقى نفسه في غديره
كأن الدجى خط الحجرة بيننا ... وقد كللت حافاته ببدوره
شربنا على حافاته كأس خمرة ... واقتل سكراً منه عينا مديره

وقال في وصف الأسد :

وليث مقيم في غياض منيعة ... امير على الوحش المقيمة في القفر
يوسد شبليه لحوم فوارس ... وتقطع كاللص السبيل على السفر
هزبر له في فيه نار وسعرة ... فما يشتوى لحم القتيل على الجمر
سراجاه عيناه اذا اظلمت الدجى ... فان بات يسرى باتت الوحش لا تسرى
له جبهة مثل المجن ومعطس ... كأن على ارجائه صبغة الحبر
يصلصل رعدمن عظيم زئيره ... ويلمع برق من حماليقه الحمر
له ذنب مستنبط منه سوطه ... ترى الارض منه وهي مضروبة الظهر
ويضرب جنبيه به فكأنما ... له فيهما طبل محيص على الكر
ويضحك في التعبيس فكيه عن مدى ... نيوب صلاب ليس يهتم بالفهر

الى آخر القصيدة وهي طويلة :

عبد الحميد الرحيلي